

البسبب

للكاتب الفرنسي فرانسوا كوبيه
بقلم الأديب عادل الجحمال

نافذة منزلي ليادل أي الحديث ، إذ أنه
كان يقطن نفس الشارع الذي كنا
نقطنه ... كان رجلاً ... وشاباً ...
حائزاً على وسام من « كرميه » ...
فتزوجا . و نمكست الأمور فلم لم يعبأ
بي ... كما أنه قد أثار أي على ... كانوا
كلهم يحقدون على أمير ما ذنب اقترفته ..
فكنت أخرج من المنزل إلى حي كليش

كان يبلغ العاشرة من عمره عند ما قبض عليه
للمرة الأولى بتهمة التشرذ .

وتكلم حينئذ قائلاً للقضاة :

« إنني أدعى جين فرانسوا ايتريك ، عملت لمدة
سنة أشهر مع الرجل الذي كان يشني ويلعب على جبل
رفيع مشدود بين مصاييح ميدان « للباستيل » ،
و كنت أردد معه المفاطع الأخيرة لكل أغنية كان
يلقيها ، ثم كان على بعد ذلك أن أمادي قائلاً :
« كل ذلك بشرة سنديات ... إنه أجر ضئيل اسباع
تلك الأغاني الحديثة . وكان الرجل دائماً غملاً ...
فتعود أن يضربني ... ولذلك هربت منه فقبض
على الجنود أس مساء . وكنت قبل ذلك مع الرجل
الذي يبيع « المنافض الريشية » . أما أي ... فمسألة
تدعى « إدبل » ... كانت تعيش في وقت ما مع
رجل على أرض مونمارتر . ولقد كانت امرأة نشيطة
تجبنى . فادخرت مبلغاً من المال كان نتيجة اشتغالها
مع عدة زبائن موفوري النعمة . وفي أيام الأحاد ...
كانت ترسلني إلى فرائني في ساعة مبكرة ... ثم
تذهب هي إلى أحد المرائض ... أما في باقي أيام
الأسبوع ... فكانت ترسلني إلى « مدرسة
الفرير » حيث تعلمت القراءة .

وتعود ضابط يدعى « دي فيل » أن يقف عند

حيث تعلمت الوحدة والبكاء .
وفقد زوج أي منصبه كما فقدت هي عملها ...
فامتادت أن تخرج باحثة عن عمل لتعول زوجها ،
وبذلت في ذلك مجهوداً كبيراً حتى ماتت في
« الأمبواسير » .

واغرورقت عينا الطفل بالدموع .. ثم غتم قائلاً :
« لقد كانت امرأة طيبة » ... ومنذ ذلك الحين
وأنا أعيش مع بائع المنافض والمغني السابق الذكر .
وصمت برهة ثم قال :

والآن ... هل ستسجنوني ؟ ؟

قال كل ذلك بطلاقة رجل مثقف مع أنه كان
من أبناء الشارع ... قصير القامة تعلوه رأس
يفطيه شعر أسود . لم يقاطعه أحد ... ولم يسأله
أحد ... فقط أرسلوه إلى إصلاحية الأحداث .

لم يكن يجيد أي عمل يدوي ... والشيء الوحيد
الذي كان يتقنه هو الاستراحة على المقاعد الخشبية .
ولكنه فوق ذلك كان مطيعاً وهادئاً هدوءاً طبيعياً .
وحين أكمل السابعة عشرة من حياته نبذ صرة
أخرى ... وألقى طريداً شربداً في شوارع باريس ...
ولتماسته وجد كل رفاقه في الإصلاحية يتمنون
منها غير مشرفة ... ملبين بذلك نداء طبيعتهم
الديئة ... فبعضهم ... كان يمسح الأحذية على
أبواب الأوبرا ... والبعض الآخر يتشاغل بتصيد

من القماش يملوه سروال أبيض قصير . وعند ما استطاع أن يتحصل على خمسة وعشرين سنتياً .. جز شعره وراح يحترف الرقص في « مونبارناس » ولكنه لم يفلح .. فاحترف البطالة ... ولكنه لم يهنأ بحرفته الأخيرة ... إذ قبض عليه مع جمع من رفاقه بتهمة سرقة الخمورين وحكم عليه بالسجن عامين في « بوليس » حيث تعلم هناك كيف يسلك طريق الاجرام — فلم يكذب بنقضى ستة شهور على فراره حتى اعتقل ثانية في حادث سطو حكم عليه فيه بخمسة أعوام قضى صيفها وشتاءها يعمل تحت أشعة الشمس صيفاً محتملاً ضربات السياط ، وبنام تحت برد الشتاء الفارس في العراء ... خمسة أعوام مرت أرسل بعدها إلى « فيرنون » حيث اشتغل قليلاً في أعمال الملاحة . وعند ما صار متشرداً لا يمكن إصلاحه .. استطاع الإفلات من أسره ورجع مرة أخرى إلى باريس ، حاملاً معه ما ادخره وكان مبلغاً يقرب من ستة وخمسين فرنكاً . كان يتخفى نهاراً ، أما ليله فكان يقضيه في نزل امرأة عجوز ، قدم لها نفسه على اعتبار أنه بحار قديم فقد أوراقه في مركبه للفريق ... وأومها أنه يبحث عن عمل ويرجو أن تشكل مساعدته بالنجاح في وقت قريب

وقادته قدماه ذات يوم إلى حي « مونمارتر » حيث ولد ... وفي تلك اللحظة حاجته ذكرى بريدة .. ذكرى أجبرته على الترتيب أمام « مدرسة الفرير » حيث تعلم للقراءة . وفتح باب المدرسة لحرارة الجو ... فكان من السهل على المار في تلك الآونة أن يرى فصول المدرسة كما رآها فرنسوا . لم يتغير فيها شيء ، فما هو ذا النور الساطع يتلألأ في الداخل .. وما هي ذي الأدراج تفصلها المرات .. ثم ... ها هي ذي الموائد المنطاة بطبقة من الكتب والأقلام ... و ... الخرائط التي طالما أشير عليها

ما ينفع من الفاذورات ، فلم يكذب بنقضى على خروجه من منزل الإصلاح عدة شهور ... حتى قبض عليه مرة أخرى بتهمة سرقة حذاء بال قديم من حانوت إسكاف ... سرقة ما فكر في الاقدام عليها إلا بمد أن أحس ببرودة الجو تتمشى في عظامه ... وكانت النتيجة قضاء عام في سجن « سانت بلاجيه » حيث أجبر على أن يتأسس طغمة الثائرين الأحداث . وعاش يغمره التمتع بين تلك الفئة من المسجونين .. وجلهم صفار السن يشابهون في اللبس ويتكلمون بأصوات عالية ... وكأوا قد اعتادوا الاجتماع في غرفة أكبرهم سنّاً ... وقد كان هذا تمسكاً يبلغ الثلاثين ... قضى معظمها في السجون وبالأخص منها سجن « سانت بلاجيه » ... أما غرفته ... فكانت أكبر غرفة في السجن ... ممتلئة جدرانها بالرسوم الكاريكاتورية ... ومن نافذتها كان بإمكان المستطلع أن يرى كل باريس بمبانيها للشاهقة وخوافها المظلمة ... كما كان باستطاعته أن يرى على البعد خطاً من التلال يبدو قريباً جداً من السماء الزرقاء . وفي تلك الغرفة كان المسجونون الأحداث يتناولون طعامهم .

وانقضى عام ... وراح مرة أخرى يجوس خلال باريس مراقباً من البوليس حيث أصبح من هؤلاء المشبوهين الذين يقبض عليهم بمجرد الشبهة فقط .. ففر إلى أورشليم ولكنه استقبل هناك بواجبات الجرائد وهي تتحدث عن الفار « النيريك » و « المسجين للنيريك » ... وأخيراً ... « المجرم للنيريك »

ومر عامان على خروجه من السجن ... يأكل حيث كان ... ويقضي الليل في أحد الخنادق الحفيرة إن لم يكن في العراء . كان يرتدى قبعة رمادية مستقرة فوق مؤخرة رأسه ... وفي قدميه حذاء

يحتاجون لمساعدتين يتقاضون أجراً قدره ثلاثة فرنكات يومياً ... ثلاثة فرنكات ... إنه أجر لم أحلم به يوماً من أيام حياتي ... سأنسى ... نعم لا بد أن أنسى .. والنسيان هو ما أنا في حاجة إليه » وكان أميناً في تنفيذ فكرته التي اعتزمها ... فلم تكذب تنقضي ثلاثة أشهر حتى أصبح رجلاً غير الرجل ، فلقبه رئيس العمل الذي كان يعمل عنده بـرجله المفضل . وبعد أيام انقضت تحت أشعة الشمس الفاتنة وسط الأوحال ، بميل تارة ويستقيم أخرى ليتناول آلات البناء من الرجل الواقف تحته فيوصلها إلى ذلك الذي استقر على قطعة من الخشب ذهب ليتناول غدائه في حانوت قريب ... منهوك القوى تؤله قدماء ... بينما كادت يداه تنقدان وعيناه تسحان الدموع من تأثير حبيبات الرمال التي كانت تداعب أجفانه . ولكنه على رغم ذلك كان راضياً عن نفسه ، ممسكاً بما كسبه من نقود في منديل استقر في يده . كان يخرج الآن دون خوف ، فقد كان قناع الجير الأبيض الطبيعي خير مخفي له عن عيون الرقباء حتى أنه حين مر بـرجل البوليس نظر إليه هذا الأخير نظرة كلها عطف ورثاء ، فذسى آلامه كناية ، فلقد كان حراً طليقاً وأخيراً ... أوه ... يا لله ... لقد وجد صديقاً كان عاملاً مثله يدعى « سافتيان » فلاحاً أتى إلى باريس بعضاً في مؤخرتها « صرة » يكاد كتفه ينوء تحت ثقلها . أحبه حين فرنسوا لسذاجته وطيبته وأمانته ... أحبه لكل تلك الأشياء التي افتقدها هو في زمن مضى . وكان سافتيان بطبيعته ضيقاً . يترك الأمور لتأخذ مجراها الطبيعي فعمل حين على مساعدته مساعدة جدية ، وعاشا سوياً في منزل صغير صريح وأشركا معهما لحاجتهما دخيلاً

إلى مواطن الحروب . ووجد فرنسوا نفسه دون وعي أو تفكير يقرأ ما قد كتب على السبورة الخشبية السوداء « ستكون الراحة في السماء .. لهؤلاء الخاطئين المستغفرين ... وسيجدون فيها سعادة أكثر ألف مرة من هؤلاء الذين لا يجدون شيئاً يستغفرون منه » لقد كانت إذ ذاك ساعة اللب دون شك ، لأن المدرس كان قد ترك مقعده ... وجلس على حافة مائدة وقد التف حوله جمع من الصبية يستمعون في شنف إلى قصة كان يرويها لهم . أي مظهر طاهر برئ كان يشع من ذلك الوجه الشاب اللطيف وهو في عبادته الطويلة السوداء وربطة عنقه البيضاء التي تتناقض تماماً مع خذائيه الكبير وشعره المشعث . وانتهى القس المدرس من قصته فأعقبها بضحكة هائلة ... أعقبها ضحكات تمالت من هؤلاء الذين كانوا ينصتون إليه أي حياة سعيدة كان يحياها هؤلاء المجدودون ! وهاجت فرنسوا في وقفته المتأمل ... ذكرى الكلمات التي لم يحض على قراءته لها بضع دقائق فتتم قائلًا لنفسه بحزن « لو أنني لم آت متأخراً في النهاية ؟ ولو كان في الامكان أن أرجع ثانية كالآخرين فأكل خبزي الجاف بشهية وأملأ أجفاني بنوم لا تشوبه الأحلام ! وهز رأسه بياس ولكنه سرعان ما أردف قائلًا وفي عينيه بريق خاطف : « إنه لجاسوس ماهر ذلك الذي يستطيع أن يستدل على الآن ... فلجيتي التي أزلتها هناك ... نبتت هنا أشد قوة وغزارة .. إن الانسان ليستطيع أن يختفي في مكان ما على الجبل ... أما من جهة العمل ... فن السهل الحصول عليه ، إذ أن الأبنية تتعالى بسرعة هائلة ... ومن الطبيعي أن البنائين

ساعها يفكر أن تمالي إلى سمعه قبل أن يدخل صوت غاضب ميز فيه صوت الرجل المعجوز الذى يشار كهما مسكنهما وصوت صاحب الدار وألحت عليه رغبة قوية لئلا يسمع حديثهما

وتكلم المعجوز قائلاً بغضب :

« نعم ... إننى واثق من أن أحداً قد اغتصب حقيقتى ونشل منها ثلاثة جنينيات كنت أخفيها فى صندوق صغير ، كما أننى متأكد من أن ذلك السارق لا يمكن إلا أن يكون أحد رفيقى اللذين أنام معهما . هذا إن لم تكن السارقة هى الخادمة ماريا ، والمسألة تختص بك تماماً كما تختص بى ... أفلمت أنت صاحب المنزل ؟ وأقسم أننى سأسوفك إلى المحكمة فوراً إن لم تدعنى أنقب عن ذهبى فى حقيقتيهما حالا أم يا ذهبى الضائع .. لقد كان هنا بالأمس وسأخبرك كيف كانوا حتى إذا عثرنا عليهم مستقبلاً فلا يكون لأى إنسان أى شك فى صدق قولى . نعم ... إننى أعرف قطي الذهبية الثلاث ، وأنا أراها أمام عيني الآن تماماً كما أراك . كانت الأولى جديدة تحمل صورة الامبراطور والثانية قديمة جداً . أما الثالثة فكان عليها أثر أسنان كانت تختبر نقاوتها . إنهم سوف لا يضحكون على ... هل تعلم أننى فى حاجة إلى قطعتين أخريين لأكل باقى نمن الأرض . هيا وتمال لتبحث مئى فى تلك الأشياء وإلا فسأنادى البوليس ... هيا . وتكلم صاحب المنزل قائلاً :

— حسن ... سأذهب للبحث عنهما مع ماريا ولكننى ... وبعد أن أجبرتني أنت على ذلك ... سألقى المسئولية على عاتقك إن غضب البنائان »

كانت حياة جين فرنسوا مملوءة بالتعاب والمفاجآت ... نعم إنه تذكر جولات سافتيان الليلية ... ولكنه لم يكن ليصدق أنه كان لصاً . وتمالي

معجوزاً شجاعاً ... يسمى لادخار بعض المال حتى يمكنه أن يشتري قطعة من الأرض فى وطنه . وكان جين فرنسوا وسافتيان دائماً متحدثين ، فى أيام العطلة كانا يتمشيان فى ضواحي باريس . ويتناولان غداءهما تحت شجرة فى أحد فنادق الضاحية التى يكونان قد استقرا بها . وتعلم فرنسوا من صديقه كل الأشياء التى يجملها عن القرية .. فمرف أسماء الأشجار والزهور والنباتات ، وأصنى كثيراً لآلاف من الكلمات تصف حياة القرية ، كان منها « أغاريد الربيع ، وقصف الشتاء ، وصوت الطواحين على حافة الياه ... » وأخيراً ... اكتشف جين فرنسوا فى روحه ناحية حاملة كان يجملها

لم يكن يزججه إلا رغبة سافتيان الشديدة فى معرفة شئ عن ماضيه ، فى بعض الأحيان كانت تمرق من بين شفثيه بعض كلمات عن اللصوص والطربدين ، فكان يحس فى نفسه بالآلام تشبه تلك التى تنتج عن جرح تفتح بعد أن كاد يتدمل ، وخصوصاً بعد ما سأله عن أمرار المدينة المرحلة الخفية الماضية عليه . كان يهرب من الاجابة إذ رأى فيها خطراً على صديقه الذى كانت أنوار الحانة تؤثر فيه تأثيراً كبيراً فتجذبه إليها بطراد عجز عن صده . وعند ما أقبل الربيع ، ابتداء سافتيان يتوجه منفرداً إلى المراقص بعد أن كان يهاب الدخول فيها . تجرأ ذات يوم وولج باب إحدى الحانات الخارجى . ومن ذلك الحين ابتداء فرانسوا يلبس للتغير الذى طرأ على صديقه . فقد تبدلت عاداته وتصرفاته ، وأصبح بليداً خاملاً ، شريراً ... لا يدفع ما عليه من ديون . فكان يتألم دون أن يتكلم إذ لم يجد قائدة من نصائح سبق تكرارها له وحدث ذات مساء بينما كان صاعداً إلى غرفته

أن ترجع إليه ثانية. ستكون طريداً وليس للقضاء.
إنني أعلم ذلك تماماً فلقد مكثت سبعة أعوام في مدرسة
الإصلاح ... وستة مثلها في سانت بلاجيه ثم ثلاثة
أخرى في بيوس وأخيراً ... خمسة في تولون. والآن ...
لا تخف فلقد رتبت كل شيء وأخذتها على عاتقي

وتتم سافنيان بصوت فيه رنة الأمل « ... إن
ذلك لمروع جداً » ولكن جين فرانسوا استمر قائلاً:
عند ما يتوجه الأخ الأكبر للحرب فلا يحاول
الأصغر الذهاب ... إنني بدلا منك وهذا كل شيء
إنك تهتم بقليل ... أليس كذلك يا سافنيان ؟
إذا فكرت رجلاً ولا ترفض . إنهم كانوا سيأخذوني
في تلك الأيام مرة أخرى لأنني هارب من المني ،
إنني أفعل ذلك ولا أطلب منك شيئاً . . فقط ...
أن تمدني بأن لا تعود . . . لذلك مرة أخرى .
لقد أحبتك يا سافنيان ولقد بعثت صداقتك السمادة
إلى قلبي بعد أن تفقدتها عبثاً قبل أن أفاك . ولقد
كنت حينئذ صادقاً وأميناً كما كنت أود أن أكون
دائماً . قد كان يكون ذلك لو أنه قد كان لي أب
مثلك وأم لتعلمني الصلاة . وللشيء الوحيد الذي آسف
له في حياتي هو أنني لم أكن مفيداً لك . وأخيراً ...
لأنك يا صديقي وهيا لتماقني إذ أنني أسمع وقع أقدام
ثميلة على الدرج ... إنهم هم مع الجنود وليس من
المستحسن أن يعرفوا مبلغ صداقتنا

وجذب فرنسوا سافنيان إلى صدره . وسرعان
مادفه إلى الأمام في نفس اللحظة التي فتحت فيها الباب .
كانوا جميعهم : صاحب المنزل والرجل المعجوز الذي
أحضر رجال البوليس

وتقدم جين فرنسوا ليتربك ماداً يديه للقيد وهو
يتنعم ضاحكاً : « أوه . إنه الحظ السيئ أخيراً »
وهو الآن في قايين ... يقضى بقية أيام حياته
كعجوز لا يمكن إصلاحه .
عادل الخمال

إلى أذنيه صوت المعجوز في نبراته الغاضبة ... تخيل
إليه أنه يستمع لدمقات قلبه « هامي ذى .. هامي ذى ..
قلبي المحبوبة .. انظر أيها المعجوز يا صاحب المنزل ..
إنها تماماً كما أخبرتك ... ويل للسارق ... إنني
في انتظاره وسيكون السجن بانتظاره هو الآخر »
وفي تلك اللحظة سمع جين فرانسوا وقع خطوات
سافنيان وهي تنتقل ببطء على درجات السلم متجهة إلى
أعلى .. يالله .. إنه ذاهب للإقامة حتفه .. يجب أن ينقذه
ثم فتح باب الغرفة ودخلها وعلى وجهه سياء
تعب شديد ... فرأى صاحب المنزل والخادمة قابعين
في ركن من الغرفة ... بينما كان المعجوز راكماً على
ركبتيه يقبل جنبهاته الذهبية ... وهنف قائلاً
بصوت جهورى :

— ماذا تفعل ؟ .. إنني أخذت النمود من
حقيبتك وخبأتها في حقيبة زمبلي ... نعم إنني لص
ولكنني لست بتدل — هيا واطلب البوليس فإن
أحاول الهروب ... ولكنني أود أن أقول كلمة
لسافنيان على انفراد ... ها هو ذا قد جاء

بوغت سافنيان حين اكتشفت جريمته فذهل
ووقف بعيداً مضموم الذراعين . وأمرع فرانسوا
ناحيته وجذبه إليه بقوة كما نما يريد أن يمانقه ثم همس في
أذنه « لا تتكلم » ثم انفتت ناحية الآخرين وتتم قائلاً:
« أتركوني وحيداً معه ... ولقد أخبرتك أنني
لن أحاول الهروب ... لكم أن تسجنونا هنا ...
ولكن ... بعد أن تدعونا على انفراد »

وخرج الجميع فتمالك سافنيان على الفراش دون
أن يفهم شيئاً مما جرى . واقترب منه فرنسوا
وأمسك بيديه قائلاً :

انتبه إلى ... إنني متأكد من أنك سرقت تلك
القطع الذهبية لشراء هدية لأحدى فتياتك ... وإن
هذا ليكلفك ستة أشهر في السجن ... لانتلب بمدها